الفصل السابع عشر

فيه كتاب ذكر نوع من المفصَّل والموَصَّل من الكلام. وفيه مدح العالمين وذمّ الغافلين عنه. وتفسير الغريب والمُشكل من القرآن باختصار الأصول الدالة على المعنى

فأما ظاهر الكلام فعلى معنيين عجيبين وهو مجمل مختصر وموّصل مكرر، فإجماله واختصاره للبلاغة والإيجاز، قال الله تعالى إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين، ومكرره وتفصيله للإفهام والتذكار، قال الله تعالى ولقد وصّلنا لهم القول لعلهم يتذكّرون، وقال عز وجل فى المبهم المجمل والتوحيد المفصّل – الر، فهذه ثلاثة أسماء: الله لطيف رحيم. وقيل بل هى حروف من اسم وهو الرحمن. ثم أظهر السبب فقال : كتاب أُحكمت آياته، يعنى بالتوحيد، ثم فصلّت أى بالوعد والوعيد، ثم قال من لَدُنْ حكيم، أى للإحكام، خبير أى بالإحكام، خبير بالتفصيل للحلال والحرام – ألاّ تعبدوا إلاّ الله ، هذا هو التوحيد الذى أحكمه، إننى لكم منه نذير وبشير، هذا هو الوعد والوعيد الذى أعلمه. فمن المختصر للإيجاز قوله تعالى وآتينا ثمود الناقة مُبْصِرة فظلموا بها، ففى هذا مختصر ومحذوفان، فالمضمر قوله مبصرة، المعنى آية مبصرة، فأضمر، ومحذوفاه قوله فظلموا بها، المعنى ظلموا أنفسهم بالتكذيب بها، فاختصرت كلمتان من كلمتين للإيجاز، ومثله قوله وهى خاوية على عروشها، الخواء الخلاء، والعروش السقوف وهو جمع عرش، فكيف تكون خاوية من العروش والعروش موجودة فيها، فهذا من المختصر المحذوف، ومعناه وهى خاوية من ثمرها أو من أهلها واقعة على عروشها، ومثله قوله تعالى ولكن البِرّ مَنْ آمن بالله واليوم الآخر، حذف الفعل وأقيم الاسم مقامه، فالمعنى فيه ولكن البر مَنْ آمن بالله، وقد يكون من المبدل فيكون المحذوف هو اسم أبدل الفعل مكانه، ولكن البر من آمن بالله، فلما كان البر وصفه أقيم مكانه. ويمثل معنى الأوّل قوله عز وجل وأُشْرِبُوا فى قلوبهم العجل، أى حب العجل، ومن ذلك قوله عز وجل أَقَتَلْتَ نفسا زكية بغير نفس، ولم يذكر قتله، والمعنى بغير نفس قتلها، فحذف الفعل. ومثله أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض، أضمر قوله بغير نفس قتلها أو بغير فساد فى الأرض فاكتفى عنه بذكر غير الأولى. وكذلك قوله مَنْ فى السموات والأرض معناه ومن فى الأرض. وكذلك قوله فما يُكَذِّبُك بعدُ بالدين، هو متصل بقوله سبحانه لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم وفصل بينهما النعت والاستثناء، والمعنى فما يكذّبك بعد هذا

البيان أيها الإنسان بالديانة، فأى شيء يحملك على التكذيب بأن تدين الله تعالى وهو أحكم الحاكمين. ومن المبدل المضمر أيضا إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات، المعنى ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى، فأضمر ذكر العذاب وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة، فأقام الوصف مقام الاسم. ويصلح أيضا أن يَترك الوصف على لفظه ويُضمِر أهل، فيكون ضعف عذاب أهل الحياة وضعف عذاب أهل الممات، كما أضمر أهل فى ذِكْر القرية وذِكْر العير فقال واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها، والمعنى واسأل أهل القرية واسأل أهل العير. ومن هذا المعنى قوله تعالى ثَقُلت فى السموات والأرض، هو من المبدل المضمر، فمبدله ثقلت ومعناه خفيت، أُبدل بدلالة المعنى عليه لأن الشيء إذا خفى علمه ثَقُل، وكذلك قوله فى السموات معناه على ومضمر أهل، والمعنى خفيت على أهل السموات وأهل الأرض لا تأتيكم إلاّ بغتة، يعنى فجأة. ومنه قوله عز وجل تفتؤ تذكر يوسف، فيه مضمر ومحذوف، فمحذوفه تزال، ومضمره لا التى هى جواب القسم، والمعنى قالوا تالله لا تزال تفتؤ تذكر يوسف فأُضمرتْ لا وأبدلتْ تزال بقوله تفتؤ، وهى من مختصر الكلام وفصيحه وبليغه، وهى لغه لبعض العرب.

وفى القرآن من كل لغة، ومن هذا قوله عز وجل وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون، وقوله سبحانه بدّلوا نعمة الله كفرا، معناه تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون، وكذلك بدّلوا شكر نعمة الله كفرا بها. ومثله وكأيّن من قرية أهلكناها وكأيّن من قرية أمليتُ لها، معناه أهل قرية مثل قوله واسأل العير المعنى أهل العير، والعير هى الإبل المجهولة، وهذا الذى يسميه النحويون المجاز. وهكذا قوله إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم، معناه للطريقة التى هى أقوم. ومثل هذا قوله عز وجل وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن، أى يقولوا الكلمة التى هى أحسن. ومثل هذا قوله إدفع بالتى هى أحسن السيئة، أى بالكلمة أو بالفعلة التى هى أحسن، ومثل قوله إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أى الكلمة الحسنى. والوجه الآخر أن الحسنى اسم لا نعت فمعناه الجنة، وهكذا قوله على مُلْك سليمان أى على عهد ملك سليمان، فأضمر قوله عهد. ومثل قوله وآتِنا ما وعدتَنا على رُسُلك أى على ألسنة رُسُلك، فأضمر ألسنة.

ومن المُكنّى المضمر قوله تعالى وما أنسانِيه إلاّ الشيطان، أضمر الحوت وذكره، واسم موسى للاختصار، والمعنى وما أنسانى ذِكْر الحوت لك إلاّ الشيطان. ومثله قوله إنا أنزلناه فى

ليلة القدر أى أنزلنا القرآن، فكنّى عنه ولم يتقدم له ذكر، وكذلك قوله حتى توارت بالحجاب يعنى توارت الشمس بحجاب الليل، فكنّى عنها ولم يُجْر لها ذكر، ومثله قوله عز وجل وما يلَقّاها إلاّ الذين صبروا، أى الكلمة الطيبة أو الفعلة التى هى أحسن، وبمعناه قوله تعالى ولا يلقاها إلاّ الصابرون، يعنى كلمة الزهد فى الدنيا، ومقالة الترغيب والرغبة فى الآخرة عائد على قوله تعالى ويلكم ثواب اللّه خير، أى هذه المقالة.

ومن المبدل المختصر قوله عز وجل وإذا قيل له اتق اللّه أخذته العزة بالإثم، معناه حملته العزة على الإثم أى حمله التعزز والأنَفَة على الإثم ولم يبال، فأخذته بمعنى حملته، وبالإثم بمعنى على الإثم. ومن هذا قوله لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، أى لا تحمله سنة ولا نوم، لأن السنة تحمل العبد أى تذهب به عن التيقظ.

ومن المنقول المنقلب قوله عز وجل يدعو لمن ضَرُّه أقرب من نفعه، اللام فى لمن منقولة، والمعنى يدعو مَنْ لَضرّه أقرب من نفعه، ومثله لتنوء بالعُصبة معناه لتنوء العصبة بها، أى لَتثقل بحملها لثقلها عليهم، ومثله قوله وطور سينين سلام على آل ياسين، وهو مما قلب اسمه لازدواج الكلم، المعنى طور سينا، وسلام على الياسين قيل إدريس لأن فى حرف ابن مسعود سلام على إدريس، ونحوه جعلوا القرآن عضّين أى أعضاء، كأنهم عضّوه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وبمعناه وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَد الطاغوت، المعنى وجعل منهم من عبد الطاغوت، ويصلح أن يكون معطوفا على قوله من لعنه اللّه وغضب عليه ومن عبد الطاغوت، ومن قرأ الطاغوت بالكسر فإنه يجعل عبد اسما وأضافه إلى الطاغوت، بمعنى وعبدة وعبّاد، وفيه خمس لغات أخرى : عِبَادُ الطاغوت وعُبُدُ الطاغوت وعَبَدةُ الطاغوت وعُبّاد الطاغوت وعَبْدُ الطاغوت، وأما عَبَدَ الطاغوت نصباً فهو بمعنى الفعل من العبادة.

ومن المضمر المختصر أيضا قوله عز وجل ألاَ إنّ عادا كفروا ربهم ، ضميره إحدى كلمتين، كفروا نعمة ربهم، وكفروا توحيد ربهم، فأضمر للاختصار، وانتصاب الاسم لسقوط الخافض، وفيها وجه غريب إلاّ إنه محمول على المعنى لأنهم غطوا ربهم التغطية، أى غطوا آياته وما دعا إليه من الحق، والمعنى كفرهم غطّى عليهم بما غطوا ربهم، هكذا حقيقةً فى التوحيد، إذ الأولية فى كل فعل منه وهم ثوان فيما بعد، فهو بمعنى قوله ولَلَبِسْنَا عليهم ما يلبسون، اللبس التغطية، ومنه قوله والذين اتخذوا من دون اللّه أولياء ما نعبدهم، مضمره يقولون ما نعبدهم، ومثله فظلتم

تفكهون إنّا لمغرمون أى يقولون إنّا لمغرمون، وعلى هذا المعنى وجه قوله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، المعنى فيه يقولون ما أصابك على معنى الإخبار عنهم والذّم لهم، فهلكت بذلك القَدَرية لجهلهم بعلم العربية، فظنوا أنه ابتداء شرع وبيان من الله عز وجل، وقد أحكم الله عز وجل ابتداء شرعه وبيانه بأوّل الآية فى قوله قل كل من عند الله، وقد كان ابن عباس يقول إذا اشتبه عليكم شىء فالتمسوه فى كلام العرب، فإن الرجل يتلو الآية فيعيا بوجهها فيكفره. وقرأتُها فى مصحف عبد الله بن مسعود فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا قالوا ما أصابك من حسنة، فهذا كما أنبأتُك. وقد رأيت فى مصحف عبد الله والذين اتخذوا من دونه أولياء قالوا مانعبدكم، فهذا من ذلك.

ومن المضمر قوله تعالى ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يَخْلُفُون، ليس أنه يجعل من البشر ملائكة ولكن معناه لجعلنا بدلاً منكم ملائكة، ويصلح لجعلنا بدلكم بمعنى منكم.

ومن المبدل له قوله عز وجل وهم لها سابقون، اللام بدل من الباء، والمعنى وهم بها سابقون لأنهم لو سبقوها لفاتتهم، وعلى هذا المعنى قال بعضهم إن قوله تعالى فلمّا تجلّى ربه للجبل، أى بالجبل، كان الجبل حجاباً لموسى فكشفه عنه فتجلّى به، كما قال من الشجرة أن يا موسى إننى أنا الله، فكانت الشجرة وجهة لموسى كلّمه الله عز وجل منها، ومثله ولأصلبنكم فى جذوع النخل معناه على جذوع، وكذلك فلا تجعلنى فى القوم الظالمين معناه أى مع القوم، وبمعناه أم لهم سُلّم يستمعون فيه أى عليه ويصلح به، وكذلك قوله مستكبرين به أى عنه، يعنى عن القرآن، فعلى هذا مجاز قوله تعالى فاسأل به خبيرا أى سل عنه، فحروف العوامل يقوم بعضها مقام بعض، ومثله قوله السماء منفطر به أى فيه، يعنى فى اليوم، ومثله لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا معناه ولا الذين ظلموا، فأُبدلت إلاّ بقوله ولا، ويجوز أن تكون إلاّ مستأنفة بمعنى لكن الذين ظلموا متصلة بخبرها من قوله فلا تخشوهم ، فهو بمعنى قوله لا يخاف لدىّ المرسلون إلاّ من ظلم، أى لكن من ظلم ثم بدل حُسْنا بعد سوء، فيكون مبتدأ لذكر خبرها بعد، وبمعناه قوله تعالى ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، أى مع أموالكم، وكذلك قوله وأيديكم إلى المرافق، أي مع المرافق لأنها داخله فى الغسل ، والحروف العوامل تنوب بعضها عن بعض. ولو أظهر مثل هذا المضمر ووصل مثل المحذوف لكانت القراءة ضعيفة.

ومن الموصول المكرّر للبيان والتوكيد قوله عز وجل وما يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء، إنْ يتبعون إلا الظن، قوله إنْ يتبعون مردودة للتوكيد والإفهام، كأنه لمّا طال الكلام أعيد ليقرب من الفهم، والمعنى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن، أى أتباعهم الشركاء فإن منهم غير يقين. ونحوه من المكرر المؤكد قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استُضعِفوا لمن آمن منهم، اختصاره الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا، فلما قدّم الذين استضعفوا وكان المراد بعضهم كرر المراد بإعادة ذكر من آمن منهم للبيان. ومثله إلاّ آل لوط إنّا لمنجوهم أجمعين، إلاّ امرأته، فادخل الاستثناء على الاستثناء وهو يطول فى كلامهم، لأنه أراد بالنجاة بعض الآل، فلما أجْمَلَهم أخرج مستثنى من مستثنى ، وفى هذا دليل أن الأزواج من الآل لأنه استثنى امرأته من آله.

ومن المكرّر للتوكيد قوله تعالى فلما أراد أن يبطش ، مختصره فلما أراد يبطش ، وقد قيل إن هذا من المختصر المضمر، مما أضمر فيه الاسم وحذف منه الفعل وهو غريب، فيكون تقديره فلما أن أراد الإسرائيلى أن يبطش موسى بالذى هو عدوّ لهما فلم يفعل قال يا موسى أتريد أن تقتلنى، فهذا حينئذ من أخصر الكلام وأوجزه. ومن المكرّر والمؤكد قوله عز وجل فلينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم، كانوا هم أشدّ منهم قوّة، مفهومُه وجائزه فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّة، فوصل بمن ووكّد فكان هم أشد ، وقراءتها فى مصحف ابن مسعود عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ قوّة، ليس فيها كانوا ولا قوله هم. وبمعناه وإنْ قَصُر قوله تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة، هذا مما طُوِّل للبيان، والمعنى لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، فلمّا قدّم مَنْ وهى أسماء من يكفر أعيد ذكر البيان مؤخرا.

ومن المكنّى المبهم المشتبه قوله عز وجل ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شىء، الشىء فى هذا الموضع الإنفاق مما رزق الله، وقوله تعالى بعده وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء، فالشىء فى هذا الموضع الأمر بالعدل والاستقامة على الهدى وكذلك قوله تعالى فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء، الشىء فى هذا الموضع وصف مخصوص من وصف الربوبية العلم الذى علِمَه الخضر عليه السلام من لدنه لا يصلح أن يسأل عنه حتى يبتدىء به، فلذلك كنّى عنه. وكذلك العلم على ضربين، ضرب لا يصلح أن يُبتدأ به حتى يُسئل

عنه وهو مما لا يضيق علمه، فلذلك وسع جهله وحسن كتمه، وعلم لا ينبغى أن يُسئل عنه من معنى صفات التوحيد ونعوت الوحدانية، لا يوكل إلى العقول بل يخُص بها المراد المحمول، فعلم الخضر الذى شَرَط على موسى عليهما السلام أن لا يَسأل عنه حتى يبادئه به من هذا النوع، والله غالب على أمره. وقوله عز وجل أم خلقوا من غير شىء يعنى الله تعالى، أى كيف يكون خلق من غير خالق ، ففى وجودهم ثبوت خالق، فهم دلالة عليه أنه خلقهم. وروينا ذلك عن ابن عباس وعن زيد بن علىّ رضى الله عنهما قالا فى قوله عز وجل من غير شىء، أى من غير رب، كيف يكون خلق من غير خالق. وقوله عز وجل والله فضّل بعضكم على بعض فى الرزق فالبعض الأوّل المفضل فى الرزق هم الأحرار، والبعض الآخر المفضول هم المماليك. ومثله قوله تعالى وقال قرينه هذا ما لدى عتيد، قرينه هذا هو الملك الموكل بعلمه، أحضر ما عنده مما علمه من فعله . وقوله عز وجل قال قرينه ربنا ما أطغيته، قرينه هذا هو شيطانه المقرون به. ومثله قوله تعالى وإخوانهم يمدّونهم فى الغى ثم لا يقصرون، الهاء والميم المتصلة بإخوان أسماء الشياطين، والهاء والميم المتصلة بيمدون أسماء المشركين، أى الشياطين إخوان المشركين يمدّون المشركين فى الغى ولا يقصرون عنهم فى الإمداد . وبمعنى هذا قوله تعالى إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، الهاء الأولى المتصلة بيتلون كناية عن إبليس، والهاء المتصلة بالباء من قوله هم به هى اسم الله عز وجل، وقد قيل أيضا إنها عائدة على إبليس أيضا فيكون المعنى هم به قد أشركوا فى التوحيد، أى أشركوه بعبادة الله عز وجل، ومثل هذا قوله عز وجل فأثرن به نقعا، فوسطن به جمعا، الهاء الأولى كناية عن الحوافر وهنّ الموريات قدحا، يعنى الخيل تقدح بحوافرها فتورى النار، فأثرن به أى بالحوافر، النقع يعنى التراب، والهاء الثانية كناية عن الإغارة، فوسطن أى توسطن به بالإغارة وهنّ المغيرات صبحا، وسطن جمع المشركين أغاروا عليهم بجمعهم والمشركون غارون. وبهذا المعنى قوله عز وجل فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات، الهاء الأولى عائدة على السحاب أى أنزلنا بالسحاب الماء، وفى قوله به مبدل ومكنّى، فالمكنى هو ما ذكرناه من أسماء السحاب، والمبدل أن به بمعنى منه. ومثل هذا قوله يشرب بها عباد الله أى منها، وهو صريح قوله فى المفسر وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا يعنى السحاب، وهو قوله سقناه لبلد ميت. وقوله فى الهاء الثانية أخرجنا به من كل الثمرات يعنى بالماء، فجمع بين اسم السحاب والماء بالهاء فأشكل.

ومن البيان الثانى والثالث للخطاب المجمل قوله تعالى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن،

فلم يفهم منه إلا أن القرآن أنزل فى شهر رمضان، ولم يدر أنَهاراً أنزل فيه أو ليلا، فقال فى البيان الثانى إنا أنزلناه فى ليلة مباركة، فلم يُفهم منه إلا أنه أُنزل منه ليلا فى ليلة مباركة، ولم يدر أى ليلة هى فقال فى البيان الثالث إنا أنزلناه فى ليلة القدر فهذا غاية البيان. وبمعناه قوله تعالى ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه، فهذا البيان الأول زيادة على الأشد وهو الوصف إلا أنه غير مفسّر، ثم قال فى البيان الثانى حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة، ففسر الأشد بالأربعين إذا كانت الواو للمدح والوصف فى أحد الوجهين. ومن الموّحد ومعناه الجمع قوله تعالى والعصر إنّ الإنسان لفى خسر، معناه أن الناس لفى خسر، أى لفى خسران لقوله إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يستثنى جماعة من واحد وإنما يستثنى جماعة من جماعة أكثر منهم ، وإنما وُحِدّ الاسم للجنس. وكذلك قوله تعالى يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدْحاً، معناه يا أيها الناس إنكم كادحون، دلّ عليه قوله عز وجل فأمّا من أوتى كتابه بيمينه، وأمّا من أوتى كتابه وراء ظهره، وإنما وُحّد النعت لتوحيد الاسم. وكذلك قوله عز وجل وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا، معناه حملها الناس كلهم، وهذا أحب الوجهين إلىّ لقوله عز وجل عُقَيْبه لِيُعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات. ومثل قوله عز وجل وإنّا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمة فرِح بها، معناه وإنّا إذا أذقنا الناس منا رحمة فرحوا بها، فلمّا وحّد الاسم وحّد نعته، دل عليه قوله تعالى وإن تصبهم سيئة بما قدّمت أيديهم، فأظهر الجمع.

ومن الجمع المراد به الواحد قوله عز وجل كذّبت قوم نوح المرسلين، يعنى نوحا وحده لأنه لم يرسل إلى قوم نوح غيره، ودل عليه قوله تعالى إذ قال لهم أخوهم نوح فوحّد الجمع. ومثله فماأوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، يعنى بذلك النبى صلّى الله عليه وسلم وحده يوم خيبر.

ومن الجمع المكنّى قوله عز وجل لخَلْقُ السموات والأرض أكبر من خلق الناس، يعنى فى هذا الموضع الدّجال، ونزل ذلك فى ذكر الدّجال واستعظامهم لوصفه. وكذلك قوله تعالى الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم، يعنى رجلا واحدا قاله لهم وهو عروة بن مسعود الثقفى، فجمع لفظه لأجل جنسه ، والعرب تجمع الواحد للجنس . وكذلك قيل فى أحد الوجوه إن قوله عز وجل ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، يعنى آدم صلى الله عليه وسلم وحده، وهو أوّل من طاف بالبيت وأتاه جبريل وأشعر له المناسك. وقد قرأت فى بعض حروف السلف من حيث

أفاض آدم فهذا شاهد له.

ومن المقدم والمؤخر لحُسن تأليف الكلم ومزيد البيان والإظهار قوله عز وجل من كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شُرح بالكفر صدراً اختصاره، ومؤخره من كفر بالله بعد إيمانه وشُرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن وكّد بقوله ولكن من شرح بالكفر صدراً لمّا استثنى المكره وقلبه مطمئن بإيمانه ، ولم يجعل المكره آخر الكلام لئلا يليه قوله فعليهم غضب من الله، فيتوهم أنه خبره وَجَعَل آخر الكلام فعليهم غضب من الله وهو فى المعنى مقدم خبر الأول من قوله من كفر بالله من بعد إيمانه ، فأخّر ليليه قوله تعالى ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، لأنه من وصْفهم فيكون هذا أحسن فى تأليف الكلام وسياق المعنى. وكذلك قوله تعالى وقيله يارب إنّ هؤلاء قوم ، هذا من المعطوف المضمر ومن المقدم المؤخر، فعاطفه قوله وعنده علم الساعة، وضميره قوله وعلم قيله، والمعنى وعنده علم الساعة وعلم قيلِه يارب، هذا على حرف من كَسَر اللام، فأما من نصبها فإنه مقدم أيضا ومحمول على أن المعنى أى وعنده علم الساعة ويعلم قيلَه يارب، فأما من رفع اللام فقرأ وقيلُه فتكون مستأنفة على الخبر وجوابها الفاء فاصفح عنهم، أى قوله إن هؤلاء قوم لا يؤمنون فاصفح عنهم. وقد تكون الواو فى قوله وقيلُه للجمع مضمومة إلى علم الساعة، والمعنى وعنده علم الساعة وعنده قيله يارب، جمع بينهما بعند، فهذا مجاز هذه المقارى الثلاث فى العربية.

ومما حُمِلَ على المعنى قوله عز وجل فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً، ثم قال والشمس والقمر حُسبانا، فلو لم يحمل على المعنى لكانت والشمس والقمر خفضا اتباعا للفظ قوله فالِق وجاعل ، ولكن معناه وجعل الشمس والقمر حسبانا، وهى على قراءة من قرأ وجعل الليل سكنا متبعة لجعل ظاهرا وبمعناه قوله تعالى وامسحوا برؤسكم وأرجلكم فى قراءة من نصب اللام محمولا على معنى الغسل، من قوله عز وجل فاغسلوا وجوهكم وأرجلكم أيضا . ومن قرأ وأرجلكم خفضا حمله على اتباع الإعراب من قوله عز وجل برؤسكم وأرجلكم، فأتبع الإعراب بالإعراب قبله لأن مذهبه الغسل لا المسح. واختيارنا نصب اللام فى المقروء على نصب الغسل واتباع الوجه واليدين، إلاّ أنه روى عن بن عباس وأنس بن مالك نزل القرآن بغسلين ومسحين، وسنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم غسل الأقدام فنحن نفعل كما فعل . وقوله عز وجل ولولا

كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى، من المقدم والمؤخر، فالمعنى فيه ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما وبه ارتفاع الأجل، ولولا ذلك لكان نصبا كاللزام، فأخّر لتحسين اللفظ. وبمعناه قوله عز وجل يسألونك كأنك حفيٌّ عنها، المعنى يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بها أى ضنين بعلمها . ومثله قوله تعالى أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها، أى نأت منها بخير فقدّم بخير وأخّر منها فأشكل.

ومن المؤخر بعد توسط الكلام قوله عز وجل لتركبن طبقا عن طبق فى قراءة من وحّد الفعل، هو متصل بقوله عز وجل ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا، لتركبن طبقا عن طبق، أى حالا بعد حال فى البرزخ، فأخّر الأحوال للقرار فى الدار، وكذلك هو فى قراءة من جمع فقال لتركبن أيها الناس، فيكون الإنسان فى معنى الناس كما ذكرناه آنفا، ويكون الجمع عطفا على المعنى، وإنما وحّد للجنس فكأنه قال يا أيها الناس لتركبن طبقا عن طبق، فأخّر هذا الخبر لما توسطا من الكلام المتصل بالقصة ومعناه التقديم. ومثل هذا قوله عز وجل ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلاّ قليلاً، وقوله إلاّ قليلاً هو متصل بقوله لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلاّ قليلاً، وأخّر الكلام لاتّبعتم الشيطان. وقد قيل إن قوله إلاّ قليلا مستثنى من الأول فى قوله وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلاّ قليلا منهم، وفى هذا بُعد والأول أحب إلىّ. وعلى هذا المعنى قرأ ابن عباس فى رواية عنه لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلاّ من ظلم جعله متصلاً بقوله تعالى ما يفعل الله بعذابكم إنْ شكرتم وآمنتم إلاّ من ظلم، وصار آخر الكلام لا يحب الله الجهر بالسوء من القول فاصلا. ومثل هذا قوله تعالى والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ألاّ تفعلوه تكن فتنة فى الأرض، إنما هو من صلة قوله وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ألاّ تفعلوه تكن فتنه الأرض. وكذلك قوله فى أوّل السورة لهم مغفرة ورزق كريم، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، ليس هذا من صلة الكلام إنما هو مقدم ومتصل فى المعنى بقوله قل الانفال لله والرسول كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، أى فصارت أنفال الغنائم إذ أنت راض بإخراجك وهم كارهون، فاعترض بينهما الأمر بالتقوى والإصلاح والوصف بحقيقة الإيمان والصلاح فأشكل فهمه. وعلى هذا قوله عز وجل حتى تؤمنوا بالله وحده إلاّ قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك، إنما هو موصول بقوله تعالى قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك، لأنها نزلت فى قولهم فقد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك عند قوله لأستغفرلك ربى، فقالوا فهلاّ نستغفر لآبائنا المشركين، فنزلت هذه الآية

ليستثنى القدوة فى إبراهيم فى هذا، ثم نزلت الآية الأخرى مُعَذرة له أوعده إياه إلي أن علم موته على الكفر فقال وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدَها إياه الآية. وكذلك قوله عز وجل ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم، وهذا متصل بقوله حُرِمت عليكم الميتة والدم إلى آخر المحرمات ، ثم قال فمن اضطر فى مخمصة يعنى مجاعة.

ومثل ما ذكرناه من علم القرآن كثير وإنما نبهنا بيسير على كثير، ودللنا بنُكت على جَمّ غفير، ليستدل بماذكرناه على نحوه ويتطرق به إلى مثله، وهذا كله على ضروب كلام العرب ومعانى استعمالهم. ووجوه استحسانهم أنه فى كلامهم المطوّل للبيان، والمختصر للحفظ ، والمقدم والمؤخر للتحسين، وكله فصيح بليغ، لأن وصف البلاغة عندهم رد الكثير المنثور إلى القليل المجمل ، وبسط القليل المجمل إلى المبثوث المفسر، فالمقصر من الكلام عندهم مع الحاجة إلى المعانى المتفرقة عجز، والمطول منه مع الاكتفاء بالمعنى الجامع منه عيّ، فلما خاطبهم بكلامهم أفهمهم بعقولهم ومستعملاتهم ليحسن ذلك عندهم فيكون حجة عليهم من حيث يعقلون، لأنه أمرهم بما يعلمون ومايستحسنون حكمةً منه ولطفا ، فذلك أيضا على هذه المعانى يفهم الخصوص من مكانهم ومشهدهم على علو مقامهم فى مكان ما أظهر لهم من العلم به، ونصيب ما قسم لهم من العقل عنه، فهم متفاوتون فى الإشهاد والفهوم حسب تفاوتهم فى الأنصبة من العقول والعلوم، إذ القرآن عموم وخصوص، ومحكم ومتشابه، وظاهر وباطن، فعمومه لعموم الخلْق، وخصوصه لخصوصهم. وظاهره لأهل الظاهر، وباطنه لأهل الباطن، والله واسع عليم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فإذا صفا القلب بنور اليقين، وأيد العقل بالتوفيق والتمكين. وتجرد الهَمّ من التعلق بالخلْق، وتأله السر بالعكوف على الخالق، وخلت النفس من الهوى، سرت الروح فجالت فى الملكوت الأعلى، وكشف القلب بنور اليقين الثاقب ملكوت العرش عن معانى صفات موصوف، وأحكام خلاّق مألوف، وباطن أسماء معروف، وغرائب علم رحيم رؤف ، فشهد عن الكشف أوصاف ما عرف، فقام حيئنذ بشهادة ما عرف، فكان ممن قال سبحانه يتلُونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به، فحق التلاوة للمؤمنين لأنه إذا أعطاه حقيقة من الإيمان، أعطاه مثلها من معناه ومعدنها حقيقة من مشاهدة ، فكانت تلاوته عن مشاهدة ، وكان مزيده عن معنى تلاوته، وكان ذلك على معيار حقيقة من إيمانه كما قال وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، أولئك هم المؤمنون حقا، فيكون العبد بوصفِ من نُعت بالحضور والإنذار،

وخُص بالمزيد والاستبشار، فى قوله عز وجل فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلماقضى ولّوا إلى قومهم منذرين، وفى قوله عز وجل فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون. ويكون من نعت مَدْحَهُ بالعلم وأثنى عليه بالرجاء ووصفه بالخوف في قوله تعالى يحذر الآخرة و يرجو رحمة ربه، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون. وقال عز وجل يدعون ربهم خوفا وطمعا، فكان هذا من أهل الله وخاصته، ومن محبيه وخالصته، كما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل القرآن أهل الله وخاصته من خلْقه. وقال ابن مسعود من كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله. وهذا كما قال لأنك إذا أحببت متكلماً أحببت كلامه، وإذا كرهته كرهت مقاله. وقال أبو محمد سهل: من علامة الإيمان حب الله عز وجل، ومن علامة حب الله حب القرآن، ومن علامة حب القرآن حب النبى صلى الله عليه وسلم، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم اتّباعه، وعلامة اتّباعه الزهد فى الدنيا. وحدثونا عن بعض المريدين قال كنت فى جدة إرادتى قد لهجت بتلاوة القرآن ثم رهقتنى فترة فبقيت أياماً لا أقرأ، فهتف بى هاتف من قبل الله عز وجل إن كنت تحبنى فَلِمَ جفوت كتابى، أما ترى ما فيه من لطيف عتابى وقال بعض العارفين لا يكون المريد مريدا حتى يجد فى القرآن كل ما يريد ويعرف منه النقصان والمزيد ويستغنى بالمولى عن العبيد. وأقل ما قيل فى العلوم التى يحويها القرآن من ظواهر المعانى المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم وثمانمائة علم، إذ لكل آية علوم أربعة، ظاهر وباطن وحدّ ومطلع . وقد يقال إنه يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتين من علوم، إذ لكل كلمة علم ، وكل علم عن وصف ، فكل كلمة تقتضى صفة، وكل صفة موجبة أفعالاً حسنة ، وغيرها على معانيها، فسبحان الفتّاح العليم.

الفصل الثامن عشر

فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين

فإذا خالف التالى هذا الوصف الذى شرحناه أو كان على ضد ذلك من السهو والغفلة والعَمَى والحيرة، مُحدّثا لنفسه مُصغيا إلى هواه ووسوسة عدوّه، متوهماً للظنون، عاكفاً على الأمانى، حقّت عليه أن يكون بمعانى ما قال الله عز وجل – ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانى، يعنى إلاّ تلاوة القرآن لا غير، وإنْ هم إلا يظنون، فوصفهم بالظن وهو ضد اليقين، كما أخبر عن الظانّين فى قولهم إنْ نظن إلاّ ظنا وما نحن بمستيقنين ، وبمعنى ما قال وكأيِّن من آية